

## مقدمة القصيدة في شعر ابن الأبار القضاعي بين النمطية والتنوع

شاكر لقمان

جامعة أم البواقي (الجزائر)

### Abstract:

Introduction to the poetry of Ibn El Abar Alq dai Between stereotypes and Diversity. Intervention provided in Arabic poetry in the context of talking about the Arab parts of the poem in general, which was prepared by Ibn Qutaiba Aldeanori who is considered as the first to point to its grammar, describing the grammar that ought to be through this approach. The researcher will try to give a picture, almost a comprehensive introduction in the poetry of the Andalusian Ibn AlAbar Alq dai ( 595h 658- h) And its overlap between the typical usual shape of old poets. And between diversity and mitigate some of them, the position of artistic expression is attributed to the poet. or a so required occasion in line with the conditions or environment of the Andalusian era. Stating all kind of length and the palace, and the reference to the predominance of each other.

إن المقصود بالقصيدة المركبة في النقد العربي، هي تلك التي تشتمل على غرضين والتي تتكون من أقسام ، عبر عنها النقاد ب: المطلع ، المقدمة ، الرحلة ، التلخيص ، الخاتمة . يقول حازم القرطاجني : (( والقصائد منها بسيطة الأغراض ، ومنها مركبة . والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاء صرفا. والمركبة هي التي يشتمل الكلام على غرضين ، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح ، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق)).<sup>1</sup>

وبالرجوع إلى ابن قتيبة ، في كتابه " الشعر والشعراء " نجده يشير إلى هذا النوع دون أن يسميها بالتسمية المتفق عليها الآن (القصيدة المركبة ) في صدد حديثه عن بناء القصيدة العربية القديمة .<sup>2</sup>

و الناظر في مدونة الشاعر ابن الأبار يستتبط أنه سار في قصائده على منهجين:

1. منهج اتبع فيه مسار القصيدة العربية القديمة، كما رسمها ابن قتيبة ((وسمعت بعض أهل الأدب...ولم يقطع وبالنفوس ظمأ)).<sup>3</sup> مع التخفف في تناول بعض أقسام هذه القصيدة وقد يطول نفس الشاعر ههنا ، وقد يقصر، كما يرى ذلك الباحث عدنان محمد غزال.<sup>4</sup>
2. ومنهج ، تملص فيه من هذا العقال ، أين دعا إلى التخفيف من النسيب ، لا سيما في بعض المواقف التي تستدعي ذلك ، ولا تحتمل التأخير ؛كالتهنئة والرثاء والزهد ، والاستجداء والوصف ، فيقول: [المديد]:<sup>5</sup>

دَعُ اسَالِيْبَ النَّسِيْبِ وَ خُذْ فِي اسَاظِيْرِ اسَاظِيْلِ

كما وجدناه يطرح فكرة الوقوف على الأطلال :[الطويل]:<sup>6</sup>

أشِدُّ بالقوافي ذِكْرَ عُلُوَّةٍ أَوْ عَلِيًّا وَدَعَّ لِلسَّوْافِي دَارَ مِيَّةٍ بِالْعَلِيَّا

ومهما يكن من أمر، فإن القصيدة المركبة، التي يتضمنها ديوان ابن الأبار، قد تكونت كأبي قصيدة مركبة أخرى - من أقسام، هي: المقدمة، والتي تستهل بالمطلع والرحلة وكانت الرحلة البحرية من أنواعها، والتخلص إلى الغرض الرئيس، الذي كان في أغلبه مدحا، انتهاءً بالخاتمة.

. المقدمة :

كانت المقدمة . كمصطلح لدى المحدثين . يقابلها عند القدامى من مثل ابن رشيق القيرواني البسط ، وعند ابن قتيبة الدينوري البدء . ولم يكن ابن الأبار يَشُدُّ عن قاعدة الشعراء القدامى، الذين كانوا يهتمون بمقدمات قصائدهم، على غرار أقسام القصيدة الأخرى إلا أن البيئة الأندلسية، التي تختلف تمام الاختلاف عن البيئة الجاهلية فرضت على الشاعر الأندلسي أن يُحوِّر من عناصر هذه المقدمة التقليدية البدوية انسجاما مع بيئته وتعبيرا عن اندماجه مع عصره. كما أهمل وصف الظعن، وكذا التفاصيل الخاصة بالرحلة إلى الممدوح، باستثناء رحلة المحبوبة، التي أخذت حظاً غير قليل من قصائده بشكل عام، ومن مقدماته بشكل خاص.

ولم يكن وقوفهم على الأطلال طويلا . كما عُرف عند الجاهليين . (( بل وصفوها وصفا عاما بالتبديل والتغير، واكتفوا بتحديد مواقع باصطناع المرور على الأماكن والوديان العربية القديمة، مشاكلة لعروبة الممدوح، كما لم يعرضوا لآثار تبدل هذه الديار بعد مغادرتها لأنهم عَنُوا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم من ذكريات ماضٍ سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم والمتعة بالحزن.)).<sup>7</sup>

ولم تظفر مقدمات القصائد بالعناية والاهتمام اللازمين، على غرار المطالع التي حظيت بهذه الرعاية الكاملة؛ بعد أن درسوا الشعر فاستحسنوا منه مطالع، وأشادوا بها واستقبحوا أخرى واستهجنوها. ولعل السبب في إغفال المقدمة، هو ما يراه حسين عطوان راجعا إلى اشتغال النحويين والبلاغيين واللغويين على هذا الشعر من زاوية واحدة . تقريبا . عندما صاروا يفتشون فيه على البيت الواحد لوضعه محل الشاهد في قصائدهم. وهي الظاهرة التي لفتت انتباه الجاحظ، إذ يقول: ((لم أرَ غايةَ النحويين إلا كلَّ شعرٍ فيه إعراب ، ولم أرَ غايةَ رُواةِ الأشعارِ إلا كلَّ شعرٍ فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج)).<sup>8</sup>

كما يؤكد الدارسون أن مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي لم تكن واحدة، بل غلب عليها نوعان؛ هما المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية. ويرجع حسين بكار الإقتصار عليها ودون غيرها إلى تفسيرين ؛ فالأول نقص استقراء القدماء، والثاني . وهو عنده الأرجح . كثرة هذه المقدمات الغزلية والطللية، مما جعل اهتمام النقاد ينصب عليهما على الرغم من وجود مقدمات أخرى في هذه القصيدة الجاهلية.

أما حسين عطوان فقد أشار إلى هذا الموضوع محددًا أن المقدمات على نوعين؛ مقدمات أساسية، ويذكر لذلك المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية، وأخرى ثانوية كبقاء الشيب ووصف الطبيعة.<sup>9</sup>

وبالرجوع إلى النقاد القدامى، نجدهم يتحدثون عن المقدمتين؛ الطللية والغزلية واللتان تناسبان . حسب ما جاءوا به . قصيدة المدح فقط ، ملزمين الشعراء اللاحقين بالسير على هذا المنهج، ودون الخروج عنه، وإلا وقعوا تحت طائلة المنوعات. ولهذا الكلام ما يبرره عندما نعود إلى مقولة ابن قتيبة: ((وسمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربيع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباية والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به أصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لانط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحرَّ الهجير، وإنضاء الرحلة والبعر ،فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذمامة التأمل، وقرَّر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة وهزَّهُ للسماح وفضَّله على الأشباه وصغَّره في قدره الجزيل...)).<sup>10</sup>

وبالمقابل نجد الناقد ذاته يعيب على الشعراء الذين يهجمون على الأغراض دون مقدمات. ولا يمكن أن يُنكر أن في الشعر الجاهلي قصائد كثيرة، لم يفتتحها أصحابها. على غير المؤلف . بنغماتهم التقليدية، إذ يقول ابن رشيق: (( من الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع، والكسع، والافتضاب، كل ذلك يقال والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بترء كالخطبة البترء والقطعاء ))<sup>11</sup>.

أما حازم القرطاجني عندما عرض للموضوع، لم يذهب مذهب الأول، بل نظر إليه بنظرة أخرى، دون إلزام ولا اشتراط يذكر، فيقول: (( ويجب أن تكون المبادئ جزلة حسنة المسموع والمفهوم، دالة على غرض الكلام، وجيزة، تامة... ))<sup>12</sup>.

ليأتي ابن الأثير، تاركا الحرية للشعراء، متحلا من القيود، التي وُجدت عند الآخرين ولكن في حدود أن لا يؤدي ذلك التحلل إلى ضعف القريحة والقصور عند الشاعر فيقول:

(( فإذا كانت مديحا صرفا، لا يختص بحادثة من الحوادث، فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل... وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإن فعل ذلك، دلَّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه ))<sup>13</sup>.

ويتطور القصيدة العربية، ومع مرور الزمن، ظهر تيار يدعو إلى التخفف من هذه المقدمات، مخالفين في ذلك بعض آراء النقاد القدامى كما فعل بشار بن برد، وأبو نواس وغيرهما.

هذا التصرف، أعقبه إقدام شعراء على الثورة على هذه المقدمات كلية؛ مثلما فعل المتنبي مع المقدمة الغزلية، إذ يقول: [الطويل]:<sup>14</sup>

إذا كان مدحُ فالنسيب المقدمُ      أكلُ فصيحٍ قال شعراً متيمٌ ؟

أوما فعله أبو نواس في ذات الموضوع، حيث يقول [البسيط]:<sup>15</sup>

لا تَبْكِ لَيْلى وَلَا تَطْرِبِ إِلَى هِنْدٍ      واشْتَرِبِ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

أو كما يقول الشاعر نفسه، وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض أشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين [الكامل]:<sup>16</sup>

صِفَةُ الطُّلُولِ بِلَاغَةُ الْفَدَمِ<sup>17</sup>      فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لِابْنَةِ الْكَرَمِ

هذا فيما يتعلق ببعض آراء القدامى في مقدمة القصيدة .

أما فيما يتعلق بآراء المحدثين، فنذكر- على سبيل المثال لا الحصر- رأيَ المستشرق فالتر براونة (Walter Braouna) الذي نظر إلى رأي ابن قتيبة السابق، مستغريا مما ذهب إليه، فردَّ عليه مُخَطَّئاً، ومبررا كلامه فيقول: ((الشاعر عضو في المجتمع البدوي مشترك في حياة عرب الجزيرة وبيئتهم، ومن المفهوم أن كل ما يسوقه وصفا للناقة والصحراء، ومن فخر بالقبيلة، وهجاء للعدو، جدير بجذب مجتمعه. فما الذي يلزمه بطلب الإصغاء وما الذي يوجب عليه الأبيات الغريبة؟ أَلِزَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَمِيلَ أَهْلُهُ بِمُقَدِّمَةِ لَوْصَفِهِ، مَعَ أَنَّهُ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ وَصْفَ الْبِدَاوَةِ يَعْجَبُ أَصْحَابَ الْحَيِّ؟)).<sup>18</sup>

أما الناقد العربي عز الدين إسماعيل، فيذهب مذهب المستشرق، ويرى . هو الآخر . رأي ابن قتيبة غير صحيح، أو غير كافٍ . على الأقل . معللا ذلك بأن فهمه كان متجها نحو المتلقين وأسماعهم فحسب . فالاختلاف . إذا . بين النقاد القدامى والمحدثين، كان أساسه أن الفريق الأول يراعي حال المتلقي ( الممدوح؛ لأن المعايير وُضعت تحديدا وفق قصيدة المدح) .

وأما الفريق الثاني (المحدثون) فيرى أن القصيدة ترجمان ما في نفسية الشاعر؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت يشع بأدنى اطمئنان إزاء الحياة (( وعلى الرغم من اختلاف القدماء في بعض الجزئيات، فإنهم متفقون على أن المقدمة يجب أن تراعي حال المتلقي أو الممدوح في كل الحالات. ولكن بعض المتأخرين أو المعاصرين يرفضون هذا التفسير بدعوى أن مقدمة القصيدة هي التي تمثل العنصر الذاتي للشاعر...)).<sup>19</sup>

وأيًا ما كان الكلام في مقدمات القصيدة العربية، فإن اتجاهاتها تطورت بحسب الموضوعات، وتعددت على مرّ الأزمان، فالى جانب المقدمتين؛ الطللية والغزلية، اللتين دار حولهما الحديث السابق، نجد في هذه القصيدة العربية مقدمةً الطعن، الشيب والشباب المقدمة الخمرية، الفروسية، وصف الطيف، ومقدمة وصف الطبيعة. صنفها الدارسون إلى مقدمات أساسية وأخرى ثانوية.

وبالنظر إلى مقدمات ابن الأبار نجدها طويلة . وهي الغالبة . ومتوسطة الطول في حالتها الوسطى، وقصيرته في القليل النادر . كما تنوعت بين المقدمات الغزلية، التي تربعت على باقي الأنواع بخمسٍ وعشرين مقدمة، استهلَّت بها قصائد المدح . ولم يكن هذا الأمر خاصا بشاعرنا فحسب بل كانت ظاهرة شائعة في أشعار الأندلسيين بصفة عامة .

إلا أن اللافت للانتباه أن هذه المقدمة الغزلية في شعر ابن الأبار، كانت في حالات غير قليلة ممزوجة بأدوات الحرب وذكر الدماء والقتلى .  
كما نثر في شعر ابن الأبار على مقدماتٍ أخرى، ولكنها وردت قليلة؛ من مثل مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام، والمقدمة الطللية، والمقدمة الخمرية، والمقدمة البحرية والمقدمة الحماسية .  
وفيما يلي عرض لهذه المقدمات المذكورة :

#### أ. المقدمة الغزلية :

سارت المقدمة الغزلية . وهي من المقدمات الأساسية في الشعر العربي . عند ابن الأبار وفق ما رسمه ابن قتيبة ، وألزم به الشعراء ، حين يقول في مناسبة النسب للمدح:  
(... ثُمَّ وَصَلَ ذَلِكَ بِالنَّسَبِ فَشَكَا شِدَّةَ الْوَجْدِ وَأَلَمَ الْفِرَاقِ وَفَرَطَ الصَّبَابَةِ وَالشُّوقَ لِيُمِيلَ نَحْوَهُ الْقُلُوبَ وَيَصْرِفَ إِلَيْهِ الْوُجُوهُ وَيَسْتَدْعِي بِهِ أَصْغَاءَ الْأَسْمَاعِ إِلَيْهِ لِأَنَّ التَّشْبِيحَ قَرِيبٌ مِنَ النُّفُوسِ ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ لِمَا قَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي تَرْكِيبِ الْعِبَادِ مِنْ مَحَبَّةِ الْغَزْلِ وَالْفِ نِسَاءً فَلَيْسَ يَكَادُ أَحَدٌ يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا مِنْهُ بِسَبَبٍ وَضَارِبًا فِيهِ بِسَهْمٍ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ،...))<sup>20</sup>.

والمقدمة التي بين أيدينا تمثل نموذجا في الطول والتنوع؛ فمن حيث الميزة الأولى فقد تضمنت ثلاثة وأربعين بيتا من مجموع أربعة وسبعين بيتا للقصيد كلها. أما من جانب التنوع، فقد كانت ثرية، متعددة الموضوعات، وهذا الذي ساهم في طولها على حساب غرض المدح الرئيس، الذي لم يكن نصيبه سوى واحدٍ وثلاثين بيتا .  
وأما هذه الموضوعات التي أطالت من هذه المقدمة المتميزة فيتصدرها الغزل بامرأة رمت بسهمها فلم تُخطئ قلبَ الشاعر، الذي هام من أجلها بوادٍ ينبت السدر والغضى، سلوا لروضٍ ينبت الرند والسرور، بيانا لشوق إلى موطنه، وحنين إلى ملاعب الصبا، الذي افتقدها مذ هاجر مرغما من قبل العدو، الذي سلبه بلده، وسرق منه أيام شبابه ولحظات أنسه، فيقول الشاعر: [الطويل]:<sup>21</sup>

أَبَقْتُ لِصَحْوِي مِنْ عِلَاقَتِهَا نَشْوَى      رَمَتْنِي بِسَهْمِ اللَّحْظِ عَمْدًا فَمَا أَشْوَى  
وَهَمْتُ بِوَادٍ يُنْبِتُ السَّدْرَ وَالْغَضَى      سَلُوا لِرَوْضٍ يُنْبِتُ الرَّيْدَا وَالسَّرْوَا  
إِذَا لَاعَبَتْ فِيهِ الْمَاءُ ظِلَالَهُ      تَبَدَّتْ لِأَلِي الدَّوِّ فِيهِنَّ وَالرَّوَا  
لَجَاجَةٌ مِنْ خَاصِّ الصَّبَابَةِ لَجَّةً      فَخَلَّتْهُ إِلَّا مِنْ تَبَارِيحِهِ خُلُوَا

وقد شبَّ بـأعرابية، تسكن الصحراء، كما يعود نسبها إلى "مُضَرَ" وقبائل عربية أخرى؛ التي تصيفُ بها في "نَجْدٍ"، وتشتو بها في "حُرُوزٍ". هذه المرأة التي تسبى النفوس بلحاظها، وتقتل العُشَّاق بغير سلاح، بما أوتيت من جمال فتان يفوق الشمس في طلعتها والقمر في نوره، فتأسرُ القلوب وتسيطر على الجوارح .

ثم ينتقل إلى ذكر الأطلال التي تذكره بحب سُرِقَ منه بعدما ظننت المحبوبة، وإلى بعض المواطن العربية المعروفة (الخلصاء) التي أقفرت، والحادي الذي يمثل الرحلة، يزيد شجنا وأحزاننا، ويثير في نفسه آلاما وأوجاعا: [الطويل]:<sup>22</sup>

وَعَلَّقْتُ أَعْرَابِيَّةً دَارَهَا الْفَلَا  
مُعَوَّدَةً سَبِي النَّفُوسِ وَقَتْلَهَا  
خَلَا أَنَّهُ مِنْ أَسْرَةٍ مُضْرِبِيَّةٍ  
إِذَا طَلَعَتْ مِنْ خُدْرِهَا أَوْ تَلَفَّتَتْ  
تُطِيعُ (شِعَافَا) تِ الْقُلُوبِ جُفُونَهَا  
ظِلَالًا لِحَادِيهَا ظَعَانُنْ أَسَلَمَتْ  
مَرَزْتُ بِأَطْلَالِ الْأَحْبَةِ بَاكِيَا  
وَقَدْ كَانَ أَخْوَى النَّجْمِ وَاحْتَبَسَ الْحَيَا

تَصَيَّفُ عَلَى نَجْدٍ وَتَشْتُو عَلَى حُرُوى<sup>23</sup>  
وَمَا عَرَضَتْ جَيْشًا وَلَا عَرَفَتْ غَرْوًا  
تَهَابُ الدِّيَاجِي صُبْحَ غَارَتِهَا الشَّعْوَى  
فَمَا الْقَمَرُ الْأَبْهَى؟ وَمَا الرَّشَاءُ الْأَخْوَى؟  
كَأَنَّ لَهَا مُلْكًا عَلَى مَلِكِهَا يَقْوَى  
بِإِزْشَادِهِ الْخَلْصَاءِ وَاسْتَقْبَلَتْ قَوًا<sup>24</sup>  
فَدَهْدَةً مَطْلُولُ الدُّمُوعِ بِهَا الْمَرْوَا<sup>25</sup>  
فَشَتَّوْا لِسَيْلٍ مِنْهُ يُرْعَبُ مَنْ أَخْوَى<sup>26</sup>

ومن المعاني ، التي احتوتها هذه المقدمة المطولة ذكر مطابقة الصبا مع الشيب، الذي يحن من خلالها إلى الأيام السعيدة التي كان يتمتع بها في بلنسية ، وذكر الحماسة النائحة على للحظات الخوالي ، فيتبادل معه الشدو بالشجو ، فيزيده ذلك المنظر همًا وكمدًا .

كما لا ينسى وهو في لحظات بث النجوى، والشكوى من ألم فراق الأهل والوطن أن يفيق من صبوته، ويثوب إلى رشده، فيبين عن إقدامه في الحرب إذا سعرت، وجزعه من الفراق إذا حلَّ وأريد، فيجد الهجران أذنب، وهو أخطر من الموت، كما يجد السلوان أقطع، وهو ألدُّ من العسل. كما ذكر الأقوام في الحرب، وحمد الكرم والجود والسماح للأيادي التي امتدت إليه وانتشلته من براثن الفقر والحاجة، وذلك تمهيدًا للتخلص إلى مدح الأمير أبي زكريا الحفصي ووليَّ عهده أبي يحيى في طالع سنة جديدة، وبرجح محقق الديوان أنها كانت سنة 640هـ أو 641هـ فيقول في هذه الموضوعات كلها: [الطويل]:<sup>27</sup>

قَدَرْتُ الصَّبَافِيهَا مَعَ الشَّيْبِ قَدْرَهُ  
وَمِمَّا شَجَانِي سَاجِعٌ فَوْقَ سَرَجِهِ  
يُرَاجِعُنِي تَحْتَ الظَّلَامِ مُرَاجِعًا  
وَإِنِّي لِمَقْدَامِ إِذَا الْحَرْبُ سَعَرَتْ  
فَأَسْتَعْذِبُ الْهَجْرَانَ أَذْهَى مِنَ الرَّدَى  
حَبِيبٌ إِلَى اللُّومِ فَيَمَنْ أَحْبَبَهُ  
وَ حَتَّمْ عَلَيَّ الْحَمْدُ لِلْجُودِ وَالنَّدَى  
أَيَادٍ كَفَّتْ مَا أَتَّقِي وَكَفَاتِهَا

وَيَا رَبَّ عَمْدٍ فِي السُّجُودِ تَلَا السَّهْوَا  
أَطَلَّتْ إِلَى أَحَانِهِ فِي الدُّجَى صَغْوَا  
فَيُسْمِعُنِي شَدْوًا وَأُسْمِعُهُ شَجْوَا  
لِظَاهَا وَمَجْرَاعَ مِنَ الْبَيْنِ إِذْ يُنْوَى  
وَأَسْتَفْظِعُ السُّلْوَانَ أَشْهَى مِنَ السَّلْوَى  
لِيَمْتَازَ صِدْقُ الْعَشْقِ فِيهِ مِنَ الدَّعْوَى  
فَمَا زَالَ يَغْدُونِي الرِّضَى بِهِمَا غَدْوَا  
فَلَا أَرْتَضِي حَدَّ الثَّنَاءِ لَهَا كُفْوَا

وكم بدرةً بادرتُ بالغنى يدي      إلى إمةٍ قد يمتت كنفِي مَثْوِي  
رغائبُ يسنديها السَّمَاخُ غَوَائِبُ      أَكَلْتُ جِيَادَ الشُّعْرِ إِذْ رَحَبْتُ شَأْوَا  
وَقَتِّي مِنْ شَكْوَى الزَّمَانِ وَذَمِّهِ      فما لي غير العَجْزِ عن شُكْرِهَا شَكْوَى

ومن المقدمات الغزلية الممزوجة بأدوات الحرب، نقف على مقدمتين؛ فالأولى بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتا من مجموع سبعة وأربعين بيتا، شكلت القصيدة، التي بُرِّزَ منها جزءٌ كان عبد السلام الهراس . محقق الديوان . قد أشار إلى ذلك .<sup>28</sup>

وقد كان للشاعر قصائد في المدح، يستهلها بمقدمات ممزوجة بأدوات الحرب يوظف فيها لغة المعركة وألفاظ القتال من مثل : ( السيف، البيض، أقتل، صرعاها، يصرع الدعس الهبر ) .

ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي يتحدث فيها الشاعر عن عنصر القوة، ولا سيما أمام المرجو استغلال قوته ومكانته بين العرب، وإنما تكرر هذا الصنيع؛ لأن ابن الأبار يؤمن بأن القوة هي الحل، والسبيل الذي يرضخ به الأعداء النصارى؛ وحديثه المكرور عن هذا العنصر إنما يؤكد أنه مفقود عند الأندلسيين، ولو كان عندهم ما تشرذموا بين البلاد العربية ( تونس، المغرب والجزائر) تحديدا. فالقوة عند الشاعر استحالت معادلة يستعصي حلها لذا نجده في كل مرة يطرح فكرة القوة. وكثيرا ما كان ابن الأبار يقارن أدوات الحرب الفتاكة التي يطعن بها الأسود الكواسر، وبين أحوال المرأة التي تقتل بال سلاح، وتسبي القلوب ولا تشفي الجراح ومازج بين دماء القتلى وبين خضاب الأوانس فاللون واحد والنتيجة واحدة إلا أن الأدوات مختلفة ، ولكن القتل واحد أيضا .

ويقول :[الطويل]:<sup>29\*</sup>

تُهَابُ السُّيُوفِ البِيضِ وَالْأَسْلُ السُّمُرُ      وَأَقْتُلُ مِنْهُنَّ الْغَلَائِلُ وَالْخُمُرُ  
أَمَا تَلِكْ صَرَعاها تَعِرُّ نَجَاتُهَا      وَكَمْ قَدْ نَجَا مَنْ يَصْرَعُ الدَّعْسُ وَالْهَبْرُ<sup>30</sup>  
بِهَا فَتَنَ الْأَلْبَابِ حُسْنُ مَنَاطِرِ      لَهَا طَرَرُ سَحْمٍ<sup>31</sup> لَهَا غَرَرُ زُهْرُ  
وَلَيْنَ قُدُودٍ يُوجَدُ النُّورَ وَالْجَنَى      لَدَيْهَا وَلَكِنْ يُعَدَّمُ الْعَطْفُ وَالْهَضْرُ  
بَكَتْ لِبُكَائِي الْمَالِكِيَّةُ فَأَلْتَقَى      بِحُكْمِ النَّوَى الْيَاقُوتُ أَحْمَرَ وَالذُّرُ  
وَمَا زُوْدْتَنِي غَيْرَ إِمَاءَةٍ كَفْتُ      وَحَسْبِي عَزْفٌ لَا يَقَابِلُهُ نُكْرُ

حِيَاتِي هَجَرَ كُلِّهَا وَقَطِيعَةٌ      أَمَا أَنْ أَنْ تَفَنَى الْقَطِيعَةُ وَالْهَجْرُ

وبعد هذا الاستهلال الغزلي، ينتقل الشاعر إلى الفخر بقومه " قضاة "، الذين يعودون إلى أصل اليمن، والتي تربطهم ببني عدنان رابطة الحلف والصهر، مشيدا بكرم هذا الأصل الرفيع ذي المجد الغالي، وبشجاعة أبطاله وتضحياتهم ويسخاء أيديهم سمو أخلاقهم عزهم في الجاهلية والإسلام ... إلى أن يخلص إلى يحي المرتضى، الذي لو أنهم أُخْرُوا لخدموه لكان ذلك فخرا وذكرًا، يُضَافُ إلى مفاخرهم :

فَخَزَتْ بِقُرْبِ الْعِزِّ مِنْ حَضْرَةِ الْعُلَى      وَلَوْلَا مَكَانُ الْقُرْبِ عَزَّنِي الْفَخْرُ  
فَإِنْ عُدَّ بَيْتِي فِي قَضَاعَةَ أَوْلَا      فَمَنْ عُدَّ مَوْلَاهَا هُوَ الْمَاجِدُ الْحُرُّ  
عَلَى أَنَّهَا جُرْتُومَةُ الْيَمَنِ الَّتِي      لَهَا فِي بَنِي عَدْنَانَ الْحِلْفُ وَالصَّهْرُ  
لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي حَالَتِهَا مَغَارِسًا      فَطَالَ وَكَابَ النَّجْلُ مَا شَاءَ وَالنَّجْرُ  
.....  
وَلَوْ أَنَّ يَحْيَى الْمَرْتَضَى أُنْسِنَا مَعًا      لَخَدَمْتَهُ لَمْ يُنْسَ يَوْمًا لَهُمْ ذِكْرُ

أما القصيدة الثانية فقد وردت فيها مقدمة غزلية أخرى في عشرين بيتا، مستمدة صورها من الاقتتال لنيل الأحبة ذكر فيها أدوات الحرب؛ منها المضارب، الرماح البيض الصفاح، الأسنة، والظبي، وشبهت الأحبة بالأهلة والكواكب، وإسراع الخيول بالظباء والأسود.

وما أبدع التقسيم والمقابلة في البيت الثالث، الذي جعل فيه الموت بين الأوانس يعادل ويساوي الموت بين الفوارس؛ فالأوليات بألحاظهن يقتلن الرجال عندما يتطلعن بأعناقهن ويتناولن بها، والآخرون يسيلون الدماء بالسيوف والرماح، فاستوى لون الدماء والخضاب، يقول الشاعر : [الكامل]:<sup>32</sup>

أَهْلًا بِهِنَّ أَهْلَةً وَكَوَاكِبَ      زَحَفَتْ هَلَالٌ دَوْنَهُنَّ مَوَاكِبًا  
تَحْدِي الرِّكَائِبُ وَالسَّلَاحُ حَوْلَهَا      تُرِيدِي كَأَسْطَارِ الْكِتَابِ كِتَابِيَا  
فَأَلْمَوْتُ بَيْنَ أَوَانِسٍ وَفَوَارِسٍ      جَارُوا عَلَيَّ أَعَادِيَّ وَحِبَائِيَا  
هُنَّ الظُّبَاءُ الْعَاطِيَاتُ سَوَالِفَا      وَهَمَّ الْأَسْوَدُ الضَّارِيَاتُ مَخَالِيَا  
جَعَلُوا الدَّمَاءَ خُلُوفَهُمْ وَخِضَابَهُمْ      مُسْتَأْصِلِينَ مُسَالِمًا وَمُحَارِبِيَا  
.....

وبعد أن يسترسل الشاعر في تشبيهه بهؤلاء الظباء، اللاتي ملكن عنه قلبه، وأسرن فؤاده فصرن أمنيته الوحيدة، ليجد في الأخير مبرر الهيام بالنواعم، شأنه في ذلك شأن التعلق بالرماح، والتسويغ للخائض من أجلهن غمار المعركة مطاعنا ومضاربا، بعد أن جعلت منه العامرية يلقي الأسنة كيفما شاء، فتارة في ميدان الحب يلهو، وأخرى في ساح المعركة يقاتل دون استراحة :

مَنْ رَاحَ بِالْبَيْضِ النَّوَاعِمِ هَانِمًا      لَمْ يَغْدُ لِلْسُمْرِ الدَّوَابِلِ عَائِبَا  
وَالصَّبُّ مِنْ خَاضِ الْأَسِنَّةِ وَالظُّبَى      نَحْوِ الظُّبَاءِ مُطَاعِنًا وَمُضَارِبَا  
.....  
قَدْ صَيَّرْتَنِي الْعَامِرِيَّةَ عَامِرًا      أَلْقَى الْأَسِنَّةَ كَيْفَ شِئْتَ مُلَاعِبَا  
أَمَّا الْهَوَى فَاخُو الْوَعَى لَمْ اسْتَرَحْ      مِنْ ذَا لِيذَاكَ (مُرَاوِحَا) وَمُنَاوِيَا



وأما القصيدة الأخرى، التي نظمها الشاعر على منوال السابقة فقد كان عدد أبياتها سبعة وسبعين، كان للمقدمة منها ستة وعشرون بيتا؛ أي ما يعادل ثلث القصيدة .

استهلها كعادته بالحديث عن محبوبته، التي صارت تنكر عليه كل شيء، حتى وإن كان ضحية حبها، والافتتان بها. فلم يعد الشاعر يلقي عندها إلا الصّدّ والهجران، وما علمت أنها بنأيها المتعمد تزيد في آلامه، وتنغص عليه حياته، التي لا يتصورها بعيدة عنه يقول الشاعر: [الطويل]:<sup>33</sup>

وَذَاكَ نَجِيعِي فِي مُخَضَّبِهَا الرَّخِصِ	أَتَجَدُّ قَتْلِي رَبِيَّةَ الشَّنْفِ وَالخَرِصِ
كَمَا طَلَعَ السَّوْسَانُ فِي صِبْغَةِ الخُصِّ	تَوَرَّسَ مَا تَغَطُّو بِهِ مَنْ عَبِيطِهِ
حَلَالًا كَأَنَّ الظُّلْمَ لَيْسَ لَهُ مُخَصِّصِ	وَتَسْفِكُهُ وَهُوَ المُحَرَّمُ سَفْكُهُ
فَكَيْفَ أَرَأَيْتُهُ عَلَى النَّخْرِ وَالقَصِّ <sup>34</sup>	أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ القِصَاصَ أَمَامَهَا

ثم ينتقل إلى الإفصاح عن هذه المرأة، التي سلبت قلبه، وأسالت دمه، دون أن تعير أدنى اهتمام لما تفعل، وهي عربية أصيلة. ولقد تكرر عند الشاعر الاعتداد بالعربيات. ولعل ذلك يوحي بأنه يفضلهن عن غيرهن، إقرارا لعروبته، التي ستحضر حتما في مقابل النصارى الذين حرموه من كل متعة، كان يتمتع بها. وفي هذا كله حنين إلى الوطن وشوق كبير يتأجج في صدره. ولعل الحنين إلى أيام السعادة لم يكن ابن الأبار يعبر عنها من خلال بلنسية فحسب وإنما كانت عنده " نجد " و " حمص النعامي " من المواطنين التي يشواق إليها ويدعو لها . على عادة العرب - بالسقيا، متمنيا أن يطير إليها ولكن هيهات ! لأن جناحه قُصَّ وحلَّ البين مكان القرب، فصارت أيامه سودا في البادية بعدما كانت بيضا في حمص. وفي ذلك إشارة صريحة إلى انتمائه العربي، الذي يفخر به بخاصة وهو المهجر عنوة من قبل النصارى الذين احتلوا بلاده. فهو لا يزال متمسكا بحبل العروبة، الذي يأمل أن يجد قوته يستعيد متانته على يد الأمير أبي زكريا حلمه وحلم الأندلسيين من ورائه في تخليصهم من ريقة هذا العدو الظالم :

أَمْطَنَ عَنِ الحُبِّ ( المُبْرِجِ ) وَالمَخْصِ <sup>35</sup>	شَمَائِلُ أَعْرَابِيَّةٍ فِي اغْتِيَاصِهَا
عَلَى الشَّدِّ وَالتَّقْرِيبِ وَالمُؤَخِّدِ وَالنَّصِّ <sup>36</sup>	سَقَى اللهُ دَارَ المُزْنِ دَارًا قَصِيَّةً
وَأَسْأَلُ عَنِ حِمَصِ النِّعَامِيِّ <sup>37</sup> وَأَسْتَقْصِي	يَسَائِلُ عَنِ نَجْدِ صَبَاهَا مُعَاشِرُ
إِلَيْهَا وَلَكِنْ حَصَّةَ البَيْنِ بِالقِصِّ	وَلَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الجَنَاحِ لِطَارَ بِي
بِحِسْمِي <sup>38</sup> وَمَا لِي لَاتِي البَيْضَ فِي حِمَصِ	فَتَشْتَانُ مَا أَيَّامِي السُّودُ أَوْجَهَا
عَلَى نَهْرِهَا وَالقُضْبُ تَهْتَاجُ لِلرَّقْصِ	بِحَيْثُ أَلْفَتْ الوُرُقَ لِلشَّدِّ وَتَنْبِرِي
وَخَلِي وَحَلْمِي مُسْتَقِيدٌ وَ مُسْتَعْصِي	وَفِي يَدِي تَشْبِيبِي قِيَادَ شَبِيبَتِي
فَلَا عَذْلٌ يُفْصِي وَلَا عَزْلٌ يُفْصِي <sup>39</sup>	كَلَانًا عَلَى أَقْصَى الهَوَادَةِ وَالهَوَى

كما نظم قصيدة أخرى طويلة في خمسة وستين بيتا، كان نصيبُ المقدمة الغزلية فيها ثلثها يمدح فيها أبا زكريا ، ويصف رياض أبي فهر المشهورة. وكانت هذه المقدمة خالصة في الغزل عبر فيها . كما ألفناه . عن عذاب الهجر ، وألم الفراق ، مشبها إياها بالمهارة التي تفترس بلحاظها الأسود الكواسر ، فيتعدد قتلاها ، ولا دية تقدمها . ويظهر الشاعر في هذه الأبيات مغرما بها ، معذبا بسببها ، هائما في حبها ، غير صابر عنها متعجبا من قساوتها في تركه يتألم ولا تلتفت إليه ، ويئن ولا تشفيه ، ويقول: [مجزوء الوافر]:<sup>40</sup>

نَأَتْ وَمَزَاهَا صَدْدُ	فَهَلْ لَكَ بِالْمَعَادِ يَدُ
مَهَاةٌ مِنْ بَنِي أَسَدِ	فَرِيَسَاءُ لَحْظَهَا الْأَسَدُ
تَفُوتُ الْعَدَّ قَتْلَاهَا	وَلَا دِيَاءَ وَلَا قَسْوَدُ
نَمَتْهَا الصَّيْدُ مِنْ مُضَرٍ	وَفِيهَا الْبَيْتُ وَالْعَدْدُ
وَرَبَّتْهَا الْفُصُورُ الْبِيـ	ضُ لَا الْعَلِيَاءُ وَالسَّنْدُ
.....	.....
أَتَاهَا أَنَّنِي وَصَبِّ	كَمَا شَاءَ الْهَوَى كَمِـ
إِذَا مَا النُّومُ نَعَمَهَا	يُعِدُّنِي بِهَا السُّهُدُ
.....	.....
أَهِيْمُ بِهَا وَلَا عَدْلُ	يُنَهْنَهُنِي وَلَا قَسْنُدُ
هَوَاهَا جَلٌّ فِي خَالِدِي	فَيَا مَا أُوْدِعَ الْخَالِدُ
وَصَبْرِي بَانَ مُذْ بَانَتْ	فَأَتَى الصَّبْرُ وَالْجَلْدُ
وَكُنْتُ أَصِيحُ: وَكَبِدِي	وَكَيْفَ؟ وَلَيْسَ لِي كَبِدُ
وَقَالُوا: قَلْبُهَا حَجَرٌ	فَقُلْتُ : وَتَغْرُهَا بَرْدُ
مِنْ عَجَبٍ قَسَاوَتْهَا	وَمِلْءُ أَدِيمِهَا الْغَيْدُ

وقد عرفنا من خلال تتبع المقدمة الغزلية الأبارية بأنها سارت وفق ما رسمها ابن قتيبة للشعراء. وهي من المقدمات الأساسية في الشعر العربي . عند ابن الأبار ، الذي نجده يتشعب بأعرابية أصيلة، يعود نسبها إلى " مُضَر " وقبائل عربية أخرى ، وتسكن الصحراء كما ألفيناه في بعض قصائده يمزج هذه المقدمات بأدوات الحرب، كأن الشوق إلى المعارك بات يؤرقه، ويطارده خياله ؛ لأن هذه الحرب هي الوسيلة الوحيدة، التي تعيد إليه أيامه الحلوة في بلنسيته، وتسمح له بأن يلتقي من جديد مع أهله خلانه، الذين أبعدهم عنه العدو .

## ب . مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام :

ومن المقدمات، التي اعتبرها النقاد ثانوية، نجد في ديوان الشاعر مقدمات في الشكوى من الدهر والأيام. ولم يكن هذا اللون حديثاً، بل هو قديم قدم الشعر العربي ينقل الصراع الدائم بينه وبين الإنسان، ينتهي في كل مرة بانهزام هذا المخلوق الضعيف لأن الدهر جبروتاً لا يقاوم ومفاجئاً كثيرة، غير منتظرة، يطل بها على البشر فيعكّر صفو حياتهم، تاركا آثارا دليل القوة والجبروت؛ من ظهور الشيب، وتقوس الظهر ونحول الجسم وغيرها من علامات القهر والغلبة.

وإن لم يتحوّل هذا الصراع الأزلي ( الإنسان والدهر والأيام ) إلى موقف فلسفي، كما نجده عند طرفة بن العبد وليبد بن ربيعة، ولدى المتنبّي والمعري إلا أن حضوره في الشعر الأندلسي بعمق فكرٍ وعميق تصوّرٍ كان له نصيبه.<sup>41</sup> وكان ابن الأبار الشاعر الموحدّي قد شكا الدهر والأيام في أكثر من مناسبة، وقد تخللت هذه الشكوى أبيات الشاعر؛ منها هذه القصيدة، التي جعل الشكوى مقدمة لها بمناسبة مدح أبي زكريا، واستعطافه أثناء غضبه عليه. تمنى من خلالها الموت على أن يبقى بعيدا على ما يقيم الأود والمحبة؛ لأن حاله لم يتغيّر؛ فيومه كأمسه خيبة، والأبواب في وجهه أبدا موصدةٌ بخاصة لما أغلق دونه باب الأمير، الذي كان مفتوحا على مصراعيه. يقول الشاعر : [الرملة]:<sup>42</sup>

أَسْرَفَ الدَّهْرُ فَهَلَا قَصَداً	ما عليه لو شَفَى بَرَحَ الصَّدَى
يَنْقُضِي يَوْمِي كَأَمْسِي خَيْبَةً	أَبَداً أَقْرَعُ بِأَبَا مُوصَداً
طَالَ قَدْحِي لِأَمَانٍ أُخْلِفْتُ	وعناءً قَدْحُ زُنْدِ صَلْداً
أَهْ مِنْهَا نَبْوَةٌ مُذْ سَدِكَتْ	لَمْ تَلْبَثْ نَافِقاً أَنْ كَسَداً
.....	.....
كَمْ تَمَنَّيْتُ الرَّدَى فِي عَيْشَةٍ	ضَرْباً صَارَ لَهَا صُلْبُ الرَّدَى
لَا أَوْدُ الغَمْرَ أَلْقَاهُ إِذَا	عَرَّ فِيهِ مَا يُقِيمُ الأَوْدَا
.....	.....

إلا أن الشاعر يعود في آخر المقدمة، وقيل أن يشرع في مدح ممدوحه يُمنّي نفسه بصلاح الحال، وأن الأمل يبقى دوماً مرجوًّا، وثقته في الأمير وعفوه لا يمكن أن تتزعزع:

أنا جَارُ البَحْرِ إِلا أَنْ لِي	منه في حالِ الوَرْدِ الثَّمْدا
وعلى ذلك يا نَفْسِي فِلا	تَيَأْسِي إِنْ مَعَ اليَوْمِ عَدا

وتبقى الشكوى من الدهر والأيام عنوان أشعاره الكبير؛ لأنه لم يهنأ تطلع إلى الحياة إلا بقليل حُلوها، أما باقي حياته، فقد قضاه في هم وغم كبيرين؛ من أهله تارة، الذين لم يستطع إقناعهم بتصرفاته، ومن الحكام الحفصيين، الذين

يترصدون بمساعدة الوشاة والحاقدين له والحاسدين علمه ونجاحاته خطواته أينما حلَّ وارتحل، فيبعدونه أحيانا ويهملونه أحيين حتى جعلوه يندم على التقرب إليهم، على الرغم من أنه لا ملجأ إلا إليهم، فكانت آلامه في ازدياد، وأحلامه في ابتعاد.

### ج . المقدمة الطللية :

وفي قصيدة بلغت أبياتها سبعة وسبعين في مدح أبي زكريا و وليّ عهده أبي يحيى وأولاده الثلاثة الآخرين، وكان ذلك في بداية التحاقه بتونس، تضمنت المقدمة فيها واحدا وعشرين بيتا، استهلها بالوقوف على الأطلال على عادة الجاهليين<sup>43</sup>، نادبا الرسوم الدارسة والأماكن الآفلة، التي صارت مرتعا للنوق والجمال، متذكرا أيامه السعيدة التي لا يكدر صفوها شيء، يقول الشاعر: [البسيط]:<sup>44</sup>

طَلَّتْ نَجِيعِي <sup>45</sup> أَطْلَاءَ وَأَطْلَالُ بِحَيْثُ يُعْقَدُ إِحْرَامٌ وَإِحْلَالُ  
مَنَازِلَ كَانَتِ الْأَقْمَارُ تَنْزُلُهَا بِالْخَيْفِ خَفَّتْ بِهِمْ نُوقٌ وَأَجْمَالُ

ثم يستطرد في وصف محبوبته، مشبها إياه بالثريا تارة وبالغزال تارة أخرى، ومحاسن جسمها؛ من قدها القويم وردفها ومعسول ريقها، ومعاناته من صدها، ويذكر كلام اللوام والعدال، الذين يترصدون خطاه، ويتتبعون حركاته. وهو في كثير من مقدماته لا ينسى أن يذكر أدوات القتال الحربية بجنب أدوات الإغراء الجسدية، وما تنتزين به فيقول:

وَالسَيْفُ وَالرُّمْحُ لَا أَرْجُو دِفَاعَهُمَا إِذَا تَمَرَّسَ بِي قَلْبٌ وَخُلْخَالُ

ومن خلال هذه القصيدة، ذات المقدمة الطللية الفريدة يتبين مذهب الشاعر الفني تجاه هذا النوع من المقدمات ، الذي يقف منه موقف أبي نواس وغيره من الشعراء الذين طرحوا هذه المقدمة الطللية، فيقول ابن الأبار [الطويل]:<sup>46</sup>

أَشْدُّ بِالْقَوَافِي ذِكْرَ عُلُوَّةِ أَوْعُلْيَا وَ دَعُ لِّلسَّوَافِي دَارَ مِيَّةٍ بِالْعُلْيَا

وعملا بهذا المبدأ الأباري . ههنا . اكتفى الشاعر بهذه المقدمة الوحيدة، إلى جانب حديث عن الأطلال في مقدمة غزلية أخرى.<sup>47</sup> لعل ذلك كان من باب بيان المقدرة على التأليف والبدء بمثل هذه المقدمات لا غير . واللافت للانتباه أن ظاهرة وصف الطلل قد كان لها حضورها المتميز في الطورين اللذين سبقا طور الموحدين؛ أي عصري الطوائف والمرابطين، عند كل من ابن شهيد وابن زيدون وأبي إسحاق الإلبيري وابن عمار وغيرهم .<sup>48</sup> وعلى الرغم من ذلك لم يكن ابن الأبار في هذه القضية امتدادا لمن سبقوه كما ألفنا أن نجد لدى الشعراء بشكل عام.

## د . المقدمة البحرية :

وتعد هذه المقدمة تطويرا لمقدمة الشعراء القدامى، التي كانت على متن الإبل في البر إلى وصف الرحلة عبر السفن، على نحو ما وجد عند بشار، وأبي الشيبص ومسلم بنو أبي تمام، وغيرهم.<sup>49</sup> كما أنشأ الشاعر عند التجائه إلى الحفصيين ببجاية في طريقه إلى تونس، وذلك أواخر سنة 636هـ. يمدح أبا يحيى ولي عهد أبي زكريا، وأمير بجاية، مبتدئا بمقدمة، وصف فيها رحلته في واحدٍ وعشرين بيتا، ذكر من خلالها سمو غايته، الذي جعله يخوض غمار هذه الرحلة الشاقّة إلى الممدوح، مستهينا بذلك، مادامت المقاصد مشروعة، والغايات ضرورية متسلحا بالصبر، عازما على المضي قدما، معتزلا رغد العيش ولذات الكرى جادا في مسعاه، لا تنتهي له عزيمة، ولا يرده عن غايته سبب، طامح الهمة، غير مُبالٍ بالصعاب لافتنا نظره إلى وطنٍ غادره مُكرها، ثوى فيه العدو، فبدا المعروف منكرا وفتح الشرك فمه ليلتهمه، بعد أن احتل مكان الإيمان في الأندلس، فخلق فيها أزماتٍ وانتثت لأهلِهِ عزماتٍ لولا بشرى يستبشر بها بنجاحه في سيره، وبلوغه مرادَهُ؛ لأنه يكفيه بعد كل هذا العناء وصوله إلى الأمير المرتجى عونه وخدمته .

وقد أحسنَ الشاعر ههنا في ربطه بين هذه المقدمة، التي وصف فيها خروجه بحرا فائزا من العدو، وقد لاقى في ذلك الصعاب والأهوال، لاثنا بالأمير المأمول منه المساعدة وتخفيف الوطء. وهي القصيدة الوحيدة في الديوان، التي ابتدأت بمقدمة بحرية، وفي ذلك خروج عن تقاليد الشعراء القدامى، وتعد ابتكارا، يضاف إلى التحوير في أقسام بُنى القصيدة التي أشرنا إلى بعضها في بداية الحديث عن المقدمة بشكل عام، ولكن ليس ابن الأبار هو صاحبه : [الرمل]:<sup>50</sup>

عَبَرَ الْبَحْرَ يَوْمَ الْأُبْحُرَا	أَمِنَّا فِي وَرْدِهِ أَنْ يُصْدِرَا
وَأَمْتَطَى اللَّجَّةَ خَضْرَاءَ بِمَا	أَلِفَ الْعَيْشِ لَدَيْهِمْ أَخْضُرَا
خَاضَ صَدْرَ الْهَوْلِ جَهْمًا عَابِسَا	يَتَّجِرِيهِمْ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرَا
وَسَمَّا لِلْغَايَةِ الْفُضْوَى عَلَى	خَطَرٍ أَحْرَزَ عَنْهُ الْأَخْطُرَا
.....	.....
فَلَهُ الْبُشْرَى بِمَرْمَاهُ الَّذِي	أَنْجَحَ السَّيْرَ عَلَيْهِ وَالسَّرَى
وَبِمَرْقَاهُ إِلَى مَرْتَبَةٍ	هَوَتْ الْأَنْجُ عَنْهَا مَظْهَرَا

وبالمقدمة البحرية أراد ابن الأبار أن يخرج قليلا على قانون القدامى، الذين كانوا يرحلون إلى ممدوحهم عبر الإبل، واختار أن تكون السفينة هي وسيلته إلى الحفصيين لأنهم كانوا الأقوى آنذ، والأكثر مدًا للعون والمساعدة لغيرهم من المسلمين، بفضل تأييد المدن العربية الأخرى لهم، واصفا هذه الرحلة البحرية الشاقّة، التي ساقته إلى أبي زكريا ليستعطفه ويستتجد به لنصرة الإسلام في أرضه والمسلمين بعامه . وقد كانت هذه القصيدة الوحيدة، التي قدم لها بمقدمة بحرية .

وقبل أن يتخلص ابن الأبار إلى ممدوحه يقتطع أبياتا قليلة، لكنها في الحقيقة تلخص معاني كثيرة؛ تحمل أمارات الحاضر، الذي آلت إليه الأندلس بعامه، وبلنسية؛ مرتع صباه بخاصة نذكر من ذلك ثلاثة أبيات كانت أصدقَ تعبيرٍ للأمنِ المرَّحلِّ والكافرِ المسيطر، الذي يفغرُ فاهُ ليلتهم وطنًا غيرَ وطنه، ويسلب أرضا لا حق له فيها، وليتَّه كان كلبا كُلِّمًا عوى ألقمَ حَجْرًا : [الرمل]:<sup>51</sup>

ضاربا في هذا الخطاب على الوتر الديني (الإيمان والشرك) ليحرك قريحة المستجد به . وملونا صورته البديعة بالمطابقة المناسبة (راح وغدا ، مَنْ آمن ومن كفر، راحلا ويحتلها ،..)

وما لهذه الطباقات من مفارقات دلالية، تبين بوضوح أن الأمر جَلِّ، ولا يحتمل التأخر وأن القضية لم تعد قضية احتلال عادية لمدينة إسلامية، أو من قويٍ لِضعيفٍ، بل قضية صليبية، لا بد أن ينظر إليها من منظار الدين (الأمانة) وضرورة الحفاظ عليه من طرف الجميع لاسيما إذا كان في يد أحدهم إمكانية ذلك ؟ !! .  
ولعلَّ النمط الذي وجدناه لدى شعراء الموحدين؛ ونخص بالذكر هنا أبيات ابن الأبار فقد كان هذا الهيكل لقصيدة سادت حقبة من الزمن، وظلت تكرر صورتها، إلى أن وصل إليه (النمط).

غير أن هذا لا يعني انغماسه الكلي فيه، فلفد سجَّنا من خلال تتبعنا لقصائد الشاعر، أنه قد مالَ بعض الشيء عن هذا التقليد، غيرَ حافلٍ بالمنحى الفني السائد والمألوف، وصار يسمح لنفسه بأن يخرج عن ذلك؛ وما القصيدة، التي قدَّم لها بمقدمة بحرية . إلا دليل على ما ذهبنا إليه، فهو لم يغرم بوصف السفينة، كما فعل الجاهلي مع ناقته، ولم يسترسل في الكلام فيها . ولكنه قصدَ الغاية لا الوسيلة؛ لأنها . بالنسبة إليه أهمُّ . وتتمثل في الوصول بشتى الطرق إلى ممدوحه ،الذي يسارع إلى لقائه مسارعة اللهبان، لا لأجل كسب ودِّ، يتهافت عليه غيره، وكان له أن يستغل الموقف ويفعل ذلك، وينال ما يريد ويحظى وحدَه بما ينشده كل طامع ومنتَهزٍ، ولكنه أبى الألقع في مثل هذا (الشرك) المُغري؛ لأنه ببساطة رَجُلٌ دولة ومُؤقَّدٌ من قِبَلِ مسؤولٍ عن دولة (ابن مردنيش)؛ حاكم بلنسية؛ ليحافظ عن دولة ويَحْفَظَ لها مكانتها التي ضاعت أو كادت . آننذ . أن تضيع بين أيدي النصارى .

فالتقليد الفني هنا (وصف الرحلة والراحلة (السفينة)، قد حدَّد له أبياتا قليلة ، صارت غير ضرورية؛ لأنها لم تكن مقصودة بذاتها؛ لأنها كانت الوسيلة، لا الغاية لا غير . والثانية عنده وعند الأندلسيين المنظرين أشرف وأعلى، وأكثر قصداً من الأولى؛ لأن المأمورية التي كُلفَ بها تُملِي عليه حتى الإطار الفني، إلى جانب الإطار الموضوعاتي . ولا نبعد على المقدمة من الجانب الفني، التي تضم في حناياها الرحلة، التي أحسنا أننا لم نفهنا حقها، بخاصة وأننا نتحدث عن أقسام القصيدة العربية؛ من المطلع إلى غاية الخاتمة.

فالحقيقة، التي تفرض نفسها ههنا، وهي أن " الرحلة " كعنصرٍ فني تقليدي دأب عليه الشعراء القدامى، وتناولوا أشكالها المختلفة، أردنا من خلالها أن نوضح لِمَا كانت عند الجاهليين؛ فقد كانت وسيلتهم "الناقة"؛ يصفونها، ويرصون على ذكر طائفة من النعوت كالصلابة، والامتلاء أو الضمور، والتحمل والشدة والسرعة .

يَا لَسَاحَاتِ ثَوَاهُنَّ الْعِدَى	فَبَدَا الْإِنْعَرُوفُ مِنْهَا مُنْعَرَا
رَاحَ مَنْ آمَنَ عَنْهَا رَاجِلًا	وَعَدَا يَحْتَلُّهَا مَنْ كَفَرَا
فَغَرَّ الشَّرْكَ عَلَيْهَا فَمَهْ	لَيْتَهُ أَلْقِمَ فِيهَا الْحَجْرَا

ويشيدون بها ؛ لأنها تحمل أمتعتهم وقلوبهم على هواجسها على السواء ؛ لذلك نجدهم يتتبعون خطواتها ؛ خطو خطوة ، وقلوبهم تهتز لذلك دفقة دفقة ، وهي تقطع لمصيرها وعبر مسارها المسطر صحراء شاسعة ، واسعة ، يلفح وجوههم حرّ شمسها ، وينير ظلام ليلهم نُورُ قمرها .

هذه صور لا نجدها في شعر ابن الأبار ؛ لأن البيئة غير الأخرى ؛ فراحلته سفينة الماء لا سفينة الصحراء ، التي أَلْفَهَا : [الرمل]:<sup>52</sup>

### وامتطى اللجة الخضراء بما ألف العيش لديهم أخضرا

وإذا كان الشاعر الجاهلي يصف راحلته ( ناقته ) باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من كيانه وصوره لا تتقطع عن حياته ، يحكم حياته الرعوية ، التي تفرض عليه . دوماً . الانتقال من مكان إلى آخر ، بحثا عن الماء والكلأ ، وليس تصويرا تخييلياً ، مجنحاً ، وإنما رسمٌ لصورة عاشها مُدُ عرفها ( الناقة ) فألفها وألفته ، ونشأت بينهما علاقة حميمة ، لا يفرق بينهما ظرفٌ إلا الموت ؛ لأنها تمثلُ أمانَ عينيه صباح مساءً ، وتحمل أوزاره ، آماله وآلامه وهودج حبيبته فصار حبه لِنَاقَتِهِ من حبه فتاته .

أما الشاعر الأندلسي . ابن الأبار . راحلته المائية . كما أسلفنا . وإنما يُعرض عن ذلك ويسرد الأهوال ولخطوب التي لاقها . باقتضاب . مقارنة سرد الجاهلي . ونظرا للمهمة التي خرج من أجلها فلا نجد في مقدمته البحرية خاصة ، إلا أنه يتحدث عن أناء : ( امتطى ، خاض ، سما ، ياله معتزما ، أظفره الصبر ، جدّ مجبولاً ، منه ، طامح الهمة ، لا مقتصدا ولا مقتصرا ، حالتيه ، طعمَ الشهد ، ذاق الصبر ، لا يبالى ، ... )<sup>53</sup>

وغيرها من الألفاظ الدالة على أنه كان المقصود بهذه الرحلة ( الغاية ) متناسيا الوسيلة ، التي لولاها ما كان ليصل إلى هدفه المنشود ، وغايته الأسمى ( أبي زكريا ) عكس ما كان يفعل الشاعر الجاهلي ؛ الذي يفرّد للناقة كلّ الموضوع . وهذا فارق كبير بين الجاهلي وبين الأندلسي .

### هـ . المقدمة الخمرية :

لم تكن المقدمة الخمرية عند الشاعر تقليدا يدعو إليه ، كما فعل بشار وأبو نواس وإنما هي عنده ؛ لأجل الثورة عليها وتركها .

وعلى الرغم من تأثر ابن الأبار بأبي نواس . وهذا ما سنعرض إليه لاحقا ، في الفصل الثاني . إلا أنه خالفه في مقدمته التجديدية ، التي دعا إليه هو ومن ناصرَه . والدليل على ذلك أنها المقدمة الوحيدة التي تضمنها ديوانه . وفيها يعرض إلى وصف مجلس الندامى ، الذين تُدار عليهم الكؤوس ، فينتشون . ولم يكن ذلك يُغري الشاعر ، ويجذبه إليه ؛ لأنه مأخوذ بالعسل الأبيض ، الذي يدمن عليه ويفضله .

والمتمأمل في حياة الشاعر ، لا يجد في كل مراحلها حديثا عن مجالس الخمر ، التي كانت تقام على ضفاف الأنهار ، وفي قصور بعض الملوك . وبالمقابل كان يُعرف عنه تقواه وورعه ، الذي كان دليل قوة إيمانه ، وهو الإمام الحافظ ، المحدث ، والفقير ، والعالم والقاضي في بعض شؤون الناس ، الذين يشتكونه مشكلاتهم ، ويستفتونه أمور دينهم .

يقول الشاعر : [البسيط]:<sup>54</sup>

لا أعصرُ الخمرَ بلْ لا أغرسُ العنبا      حَسْبِي تُغَوَّرُ تَبِيحُ الظَّلَمِ والشَّنْبَا  
إِذَا تُدَارُ عَلَى صَاحِ سُلَافَتِهَا      يَوْمًا تَهَافَتَ سُكْرًا وَأَنْتَشَى طَرِبَا  
وِظَلٌّ يَهْزِجُ فِي أَثْنَاءِ نَشْوَتِهِ      حَتَّى كَأَنَّ دَمَ الْغُنْقُودِ مَا شَرِبَا  
قُلْ لِلنَّزِيفِ بِهَا: أَدْمَنُ عَلَى ثِقَةٍ      فَلَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ أَدْمَنَ الضَّرِبَا<sup>55</sup>

وقبل أن يشرع في مدح الأمير أبي زكريا . وهو الغرض الرئيس . يردف المقدمة الخمرية بموضوع النسيب، يذكره في سياق وصف الرحلة إلى ممدوحه، عبر رحلة محبوبته (خولة )، التي لا نعلم إن كانت امرأة حقيقية أحبها الشاعر، أم أنها رمز لامرأة . أي امرأة . فيصف رحلتها، وقد علقت معها قلبه، فتأثر لذلك بدنه، بعد أن أرادوا حجبها عنه ونسوا أن الشمس لا تُحجَب، فيقول مخاطبا أهلها، الذين حرموه منها وحجبوها عنه:

ساروا به دون جسمي كيف صاحبهم؟      ولا قَوامَ له إلا إذا اصْطَحِبَا  
يا آلَ خَوْلَةَ لا أَلُو مَضَارِبِكُمْ      حَوْمًا عَلَيْهَا رَجَاءَ الْوَرْدِ إِذْ (عَدُّ)بَا  
وَإِنْ حَجَبْتُمْ عَنِ الْأَنْظَارِ هَوْدَجَهَا      فَحَاجِبُ الشَّمْسِ لا يَخْفَى وَإِنْ حُجِبَا  
مَا ضَرَّكُمْ لَوْ قَفَعْتُمْ مِنْ تَعْلِقِهَا      بِأَنْ يَسُوقَ (لِهَا) الْمُهْرِيَةَ النَّجْبَا  
لَئِنْ بَخَلْتُمْ بَنَزْرٍ لَيْسَ يَزْرُوكُمْ      لَتَفْضَحَنَّ بِمَا تَأْتُونَهُ الْعَرِيَا

وقد أحسن الشاعر في الربط بين هذه المقدمة، ذات الموضوعين، وبين الموضوع الرئيس الذي جعله مدحا الأمير الحفصي حين يقول:

أَلَيْسَ يُغْدِيكُمْ جُودُ الْأَمِيرِ عَلَى      قَاصِ وَدَانٍ بِمَا يَسْتَعْرِقُ الطَّلْبَا

إن مقدمة الشاعر الخمرية، تندرج ضمن ما سبق وأن أشرنا إليه؛ وهو أن الحديث عنها ليس من باب التمسك بها، ولا الدعوة إليها، وإنما من أجل تركها وهجرها كما فعل مع المقدمة السالفة (الطللية). ومن هذا يتبين أن الشاعر، العالم ، الفقيه المحدث والحافظ للقرآن الكريم منذ صغره يطرح فكرة المقدمة الخمرية تعففا على الرغم من تأثره بالداعي إليها (أبي نواس) .

والمتمأمل في هذه المقدمة يجدها تفتقر عن مقدمات غيره من الشعراء، الذين يسرفون في هذا الموضوع في الحديث عن مجالس اللهو والأنس والعريضة، يصفون الخمر وعنقها ولونها كؤوسها وساقها أو ساقيتها وسلطانها وأثرها على شاربها، الذين يُقبلون عليها لقتل الهموم ونفي الأحزان، وإحياء النشوة والسرور كما فعل ابن الرومي<sup>56</sup>، وأبو نواس وغيرهما.<sup>57</sup>



## و . المقدمة الحماسية :

للشاعر ابن الأبار قصيدتان مشهورتان؛ هما الهمزية السينية. تدخل كلتاها في باب الاستتفار لتخليص الأندلس .

فأما الأولى فهو لا يروي الأحداث بهدوء وحياد، وإنما يسمع صوته عاليا ،مُدويا ؛لأن بلاده الأندلس تننُّ تحت وطأة العدو الغاشم ، فهو حامل مسؤولية وطن مشرد، ومهمته تصب في قالب الفكر الحضاري العربي، والدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية ضد الغزاة الصليبيين

فكانت النزعتان في شعره نزعتين : حكاية سرديّة ملحمية، يصف فيها المعارك ويرسم مأساة الوطن الأندلسي بشكل عام . ونزعة درامية حزينة، يعبر بها عن شحنة عاطفية تتأجج في صدره، وتعتصر أنفاسه، دالة على أهمية الموضوع،الذي لا يجوز لأي كان أن يتأخر عنه كواجبٍ عالقٍ في صدر كل مسلم يغار على دينه، ويبيكي لحال أهل وطنه العربي الإسلامي الكبير. إلى أن يصل إلى المستجد به أبي زكريا فيجعله حامي الحمى، والذائد عن الدين ، مبشرا الأندلسيين بقرب الفرج،الذي سيكون بمشيئة الله على يديه [الكامل]:<sup>58</sup>

بُشِّرِي لِأَنْدَلُسٍ تُحِبُّ لِقَاءَهُ      وَيُحِبُّ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِقَاءَهَا

والشاعر في هذا الموقف يبين عن نهجه في الاستتفار، بأن يتفادى الغزل والنسيب في مثل هذه المواقف التي تقتضي من صاحبها أن يتوجه مباشرة إلى وصف الأساطيل والجيوش الجرارة،التي يكون بناصيتها الفلاح والنجاح ..، وذلك عندما يقول [المديد]:<sup>59</sup>

دَعُ أَسَالِيبَ النَّسِيبِ وَخُذْ      فِي أَسَاطِيرِ الْأَسَاطِيلِ  
أَخَوَاتُ الْخَيْلِ سَابِحَةٌ      ذَاتُ تَزْيِينٍ وَتَزْيِيلِ  
وَبِنَاتُ الْمَاءِ صَائِلَةٌ      كَالْأَفَاعِيِّ الْأَفَاعِيلِ

وأما في قصيدته السينية، التي كانت في الحققة التاريخية قد نظمها الشاعر قبل الهمزية التي لم ينسبها " المقرئ " إلى أحد من الشعراء . كما أشرنا نقلا عنه في مناسبة سابقة . فقد أنشأها بعد أن ركب السفينة وقصد أبا زكريا المنشود عونه، والمرجو مددُهُ وكان الحديث في بداية الأمر على الخيل والأسلحة والأسطول البحري، الذي سيشارك في المعركة التي يتمناها الشاعر المستجد أن تكون الفاصلة بين الحق والباطل ،وبين المسلمين والكفار . وكان الحديث حسب القصيدة التي بلغت أبياتها سبعة وستين بيتاً تتكون من مقدمة مزروجة بالدعوة إلى إعداد خيول الله (الجهاد) ؛لأن ما وصل إليه أهالي الأندلس ومقدساتها والحيث الذي لحق بأهلها ، والفساد الذي استشرى بأرضها ، وبين إشارة واضحة أن المأمورية كانت على متن السفينة ، عندما يقول الشاعر [البسيط]:<sup>60</sup>

وَأَفْتَكِ جَارِيَةً بِالنُّجْحِ رَاجِيَةً      مِنْكَ الْأَمِيرَ الرَّضْوَالَسَيْدَ النَّدْسَا  
خَاضَتْ خُضْرَةَ يُغْلِيهَا وَيُخْفِضُهَا      غَبَابُهُ فَتُعَانِي اللَّيْنَ وَالشَّرْسَا

## وَرِيْمًا سَبَحَتْ وَالرِّيْحُ عَاتِيَةً كَمَا طَلَّبَتْ بِأَقْصَى شَدِهِ الْفَرَسَا

كما أنشأ ابن الأبار قصيدة بمناسبة ولاية العهد لمحمد المستنصر، وكان ذلك في 12 من ذي الحجة سنة 646هـ في ثلاثة وعشرين بيتا، كان نصيب المقدمة الحماسية فيها ثمانية أبيات قال فيها :

مِنْ كُلِّ رَفْرَاقِ الْفِرْدِ (رند) كَأَنَّهُ نَهْيُ إِذَا مَا الْغَمْدُ عَنْهُ جُرْدَا  
وَمُتَّقَفٍ ذَلِقِ السَّنَانِ تَخَالُهُ فِي السَّرْدِ يَخْرُقُ جَانِبِيهِ مُسْرَدَا  
قَسَمَ الْجَبَابِرَةَ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا وَتَسَنَّمُوا صَرَخَ الشَّقَاقِ مُمْرَدَا  
أَيِّنْ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيِّنْ غَنَاؤُهُ لَا مُلْحِدًا إِلَّا وَأَصْبَحَ مُلْجِدَا  
وَحَكَتْ أَجَادِلُ زُغْبَةَ زُغْبِ الْقَطَا وَغَدَتْ رِيَاخُ بَنِي رِيَاخِ زُغْدَا  
زُهْرٌ مَنَاقِبُهُ أَبَتْ عَلَيَّاهُ أَنْ تَلْقَاهُ إِلَّا وَاعِدَا أَوْمُوعِدَا  
لَمْ أَرْضَ إِلَّا بِالنُّجُومِ مَنْزِلًا لَمَّا حَادَا بِي لِلْسَّعَادَةِ مَا عَدَا  
إِنِّي رَحَلْتُ إِلَيْهِ فِي طَلَبِ الْغَلَى لِأَكُونَ عَبْدًا فِي دُرَاهُ سَيِّدَا

استهلها بوصف سيفٍ لا مثيلَ له، يشبه إذا ما جُرِّدَ من غمده بغدير، ويمتَقَفُ حَدَّ السَّنَانِ قُضِيَ بِهِ عَلَى كُلِّ جَبَّارٍ، مَتَعَّتْ وَمَتَمَرَّدَتْ، ضَارِبًا الْمَثَلَ بِابْنِ غَانِيَةٍ الَّذِي كَانَ يَقُومُهُ مَصْدَرُ قَلْقِ الْمُوَحِدِينَ، بِفَضْلِ الْخَطُورَةِ الَّتِي كَانُوا يُمَثِّلُونَهَا ضَدَّهُمْ، فَانْبَرَى لَهُمْ أَبُو زَكْرِيَا الْحَفْصِيُّ وَقَضَى عَلَى آخِرِهِمْ سَنَةَ 631 هـ . ثم ينقل إلى مدح ممدوحه ولي العهد ( المستنصر ) رابطا بذلك مقدمته الحماسية بالعرض الرئيس المناسب لها .

وفيما يلي جدول بياني لنوع المقدمات في شعر ابن الأبار، وعدد القصائد وعدد أبياتها مع عدد أبيات مقدمة كل

نوع :

نوع المقدمة	عدد القصائد	ع.أبيات القصيدة	ع. أبيات المقدمة	الغرض الرئيس
المقدمة الغزلية	25 قصيدة	من 16 إلى 77 بيتاً	من 12 إلى 42	مدح، وصف
م. الشكوى	04 قصائد	من 19 إلى 71 بيتاً	من 06 إلى 29	مدح، رثاء، استعطاف
المقدمة الطللية	واحدة	77 بيتاً	21 بيتاً	مدح
المقدمة البحرية	واحدة	78 بيتاً	20 بيتاً	مدح
المقدمة الخمرية	واحدة	45 بيتاً	15 بيتاً	مدح
المقدمة الحماسية	03 قصائد	من 23 إلى 90 بيتاً	08 أبيات	استنصار، مدح

والمتمعن في هذا الجدول، ومن خلال النماذج القليلة، التي اعتمدها في الحديث عن مقدمات ابن الأبار المتنوعة يتبين لنا أن هذه المقدمات على اختلافها قد تنوعت بين الطول والقصر، كما أنها قد جمعت في حناياها قبل التخلُّص إلى غرض القصيدة الأساس معاني عديدة؛ من مثل الجمع بين الطلل والرحلة والغزل، إضافة إلى الشكوى من الدهر والأيام وكذا وصف الطبيعة.

كما أن الناظر إلى هذه المقدمات . أيضا . يجد الحظ الأوفر كان من نصيب المقدمة الغزلية، عمد إليه الشاعر تقليداً منه للشعراء القدامى، الذين اختطّ طريقهم ابنُ قتيبة الدينوري (( لِيُمِيلَ نَحْوَهُ الْقُلُوبَ ، وَيَصْرِفَ إِلَيْهِ الْوُجُوهَ،وَلَيْسْتَدْعِي بِهِ أَصْغَاءَ الْأَسْمَاعِ إِلَيْهِ لِأَنَّ التَّشْبِيحَ قَرِبَ مِنَ النُّفُوسِ ،لَانْطَ بِالْقُلُوبِ...))<sup>61</sup> ، وكان ذلك مناسباً للغرض الرئيس الذي يتخلص إليه، والذي كان في الأغلب الأعم مدحاً ،إلى جانب قليل من الوصف اقتضته مناسبات معينة ؛كوصف رياض أي فهر البديعة، التي كانت محل فخار السلطان، وبصمة بستانيّ الحفصيين الخاصة، بينما جاء في المرتبة الثانية مقدمة الشكوى من الدهر والأيام التي لم تُسْعِفْهُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا، نَلَخَّصَهَا فِي ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ لَهُ مَتَفَرِّقَاتٍ ، إذ يقول في الأول [الوافر]:<sup>62</sup>

أَبِينُ وَشَوْقُ وَارْتِيَاعُ؟ لَقَدْ حُمِّلْتُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ

ويقول في الثاني [الوافر]:<sup>63</sup>

إِلَى مَنْ أَشْتَكِي صُنْعَ اللَّيَالِي بِنَا وَتَفَرَّقَ الْحَيِّ الْجَمِيعِ

ويقول في الثالث [الكامل]:<sup>64</sup>

لَوْ أَنَّ تَهْلَانَا تَحْمَلُ بَعْضَ مَا حُمِّلْتَهُ خَرَّتْ ذُرَى تَهْلَانِ

كما يلاحظ ورود نسبة هاتين المقدمتين (الغزلية ومقدمة الشكوى ) عالية ،مقارنة بالمقدمات الأخرى؛ أي بنسبة 54.54 % و 40.48 % على التوالي، هذا بحساب أعلى عدد أبيات كلتا المقدمتين . ويمكن تعليل ذلك بأن غلبة المقدمة الغزلية مرده إلى أن الشاعر كان يسير وفق ما رسمه الأقدمون . كما أسلفنا . محافظاً في ذلك على نهجهم دون الحيد عن سمتهم . بينما يُعزَى كثرة ورود مقدمة الشكوى إلى أن ابن الأبار كان قد عانى في مرحلتي حياته ( الأندلسية والإفريقية) معاناة شديدة، وبخاصة في تونس، التي وجد فيها . وهو الغريب الوافد عليهم . مالم يكن يتصور . وهو العالم والمتفوق وصاحب البأو والكبر . الذي جلب عليه سخطاً شديداً، وتبرماً من طباعه كبيراً حتى من قبل الذين استقدموه، فعاش الغريبتين .

أما إذا انتقلنا إلى المقدمتين التاليتين ( الطللية والبحرية)، فأول ما يمكن تسجيله تقارُبُهُمَا فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ من حيث عددُ القصائد، الذي كان في كل منهما قصيدة فريدة ومن حيث عددُ أبياتهما، وعددُ أبيات مقدمتيهما، انتهاءً إلى الغرض، الذي كان مدحاً لأبي زكريا و وليّ عهده . ويمكن تبرير هذه النسبة القليلة بأن المقدمة الطللية، كان إيرادها من أجل الثورة عليها والدعوة إلى الابتعاد عنها، على الرغم من أن الشاعر ذاته كان قد تتبع خطوات ابن قتيبة في رسمه الذي اختطّه لشعراء قبله، وقد تبين ذلك جلياً في المقدمة الغزلية إلا أنه مع المقدمة الطللية خالف القاعدة وخرج عن المطلوب منه وممّن قبله.

ويمكن عزو هذا الخروج عن النمط المألوف إلى بيئة الأندلس المتحضرة قد فرضت عليه أن يعيش واقعا غير واقع شعراء البداوة، يضاف إلى ذلك أن الظروف، التي يحياها يومياً صرفته إلى ما هو أهم، فأراد أن يسهم في تخليص وطنه من ربقة العدو الجاثم على أرضه كما يمكن أن نتصور معه وهو الشاعر المسؤول عن قضية وطنية وقومية

وإسلامية لا يريد أن يبكي ظللاً ؛ لأنه متشوق إلى أن يعود إلى بلنسيته قبل أن تغدو كذلك (طللاً) على الرغم من أننا نجده في قصيدتيه الاستغاريين (السينية والهمزية) قد أشار إلى ما آلت إليه بلاده من محو معالم إسلامية، وتدنيس مقدسات دينية، وطغيان صوت النواقيس في الآذان على الأجراس، فأملهُ في الرجوع إلى موطنه لم ينقطع مادام هناك أبو زكريا الحفصي يسمع صوته ويمده ووطنه بالعون والمدد.

أما فيما يتعلق "بالمقدمة البحرية"، فقد كان شاعر ابن الأبار يصف واقعا عاشه يوم أُوفد إلى السلطان الحفصي لطلب العون والمساعدة، من أجل تخليص وطنه من ريقة العدو الجاثم على صدر أمته. ولم يكن في هذا الموقف مقلدا كما فعل بعض الشعراء، وإنما كان ينقل عبر أبيات صورة حقيقية، وما كان بحاجة إزاء الوضع المزري، الذي يعيشه أهله البننسيون بخاصة، والأندلسيون بعامة من جزاء تسلط الأراغونيين، الذين استقروا على الأهالي العزل، سلبوهم كرامتهم وتعدوا على أعراضهم، واستباحوا كل حلال عندهم.

فكانت الوفادة إلى السلطان الحفصي، الذي دانت له رقاب كثير البلدان عبر السفينة المباركة بدل الناقة، التي لم تكن موجودة. ولقد كان لابن رشيق القيرواني رأيٌ صريح لما تحدث عن ارتباط الشاعر. أي شاعر. ضمن القصيدة بوجود الناقة والفلاة في حياته اليومية، فالأمر عنده عادٍ إذا ما كانت (الناقة والصحراء) موجودتين واقعا، أما إذا لم يكن ذلك قائما، فذكره في القصيد غير جائز (( فالواجب اجتنابه ))<sup>65</sup>، كما هو الحال في زمن ابن رشيق، الذي نكر بأنه لا يوجد في زمنه، وقد ذكر هذا الرأي لما مثل بأبي الطيب المتنبّي وتفضيله للخيل بدل الإبل.<sup>66</sup>

وإذا ما تناولنا "المقدمة الخمرية"، فإننا نجد للشاعر قصيدة، يبلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتا، وردت في غرض المديح لأبي زكريا الحفصي، كان نصيب المقدمة فيها ثلثها تماما، وكانت مزوجة بالحديث عن فتاته؛ فانتبه، التي منعوها منه، وأبعدوها عنه حتى لا يراها، ناسين أن الشمس لا تخفيها الحُجُب. ويحسن الربط ههنا بين هذه المقدمة وبين الموضوع الرئيس (مدح السلطان)، حينما يجعل بُحْلَ أهل حبيبه تعويضا له عن كرم ممدوحه الذي لا يبخل بمدّ يده إليه ليسعفه ويخفف عنهن مسترسلا. كما عودنا. في ذكر فضائل السلطان والإشادة بعظيم أخلاقه وجميل صنيعه مع الناس جميعا، متسلحا بقوة التدين وسطوة منه في الحق على السلاطين. ونجد الشاعر هنا قد أحسن الربط بين موضوعيه بقدر لا تكاد تميز بينهما.

وفيما يتعلق "بالمقدمة الحماسية" فإننا يمكن أن نقول إن هذا النوع لم يكن من المقدمات الغالبة في الشعر العربي بعامة إذا ما قورنت بباقي المقدمات؛ من مثل الطللية والغزلية ومقدمة الطعن. وهو الأمر ذاته، الذي وجدناه في القصيدة الأبارية، التي لم تُلقِ بالأبدا بهذا النوع ذلك أن مقدمة وحيدة يمكن أن نصنفها ضمن المقدمات الحماسية، التي استهلها بالحديث عن الفرند (السيف) المشبه في تجريده بالنهي (الغدير) وبالمتقف (الرمح) الذي تُسَمُّ به هام الأعداء المتمردين، ممثلا في ذلك بابن غانية ومصيره، وكذا مصير بني غانية، الذي كانوا يشكلون خطرا على السلطان كبيرا.

وتكمن هذه الرابطة الحماسية بالموضوع (المدح) في أنّ الشاعر استنطاع أن يجعل الكلام عن أدوات الحرب والبطش، التي لا يمتلكها إلا أمثال السلطان الحفصي أبو زكريا، هي التي جعلته يقول: [الكامل]:<sup>67</sup>

لَمْ أَرْضَ إِلَّا النَّجُومَ نَوَازِلًا      لَمَّا حَدَا بِي لِلسَّعَادَةِ مَا حَدَا  
إِنِّي رَحَلْتُ إِلَيْهِ فِي طَلَبِ العُلَى      أَكُونُ عَبْدًا فِي ذَرَاهُ سَيِّدًا

وإن الحديث . في الحقيقة . عن ربط المقدمات بموضوعاتها من أهم ما تطرق إليه النقاد الذين نجد الأخير منهم نقل أو استفاد من الأول ، استفادة، جعلوا الشواهد بينهم مكرورة باستثناء تفصيل بعضهم ، أو تلخيص آخر . وهذا ما يعني أن سلطة نهج القصيدة الجاهلية قد رمى بثقله على كل الرؤى . تقريبا . لأن هم كل واحد منهم هو الحفاظ على حسن الاستهلال ، الذي يؤدي بدوره إلى الربط اللصيق بالموضوع الرئيس، الذي يكون إما مدحا أو هجاءً أو فخرا أو غيرها من الموضوعات ، التي من أجلها نُظِمَتِ القصيدة . ولسنا بحاجة . هنا . أن نستعرض هذه الآراء ؛ لأننا كنا قد أشرنا إليها في مواضعها .<sup>68</sup>

كل النقاد يكاد يجمعون على أن: أحسن الشعر ما كان منتظم الأجزاء؛ أي يُجمع أوله بآخره كما يجب أن تكون القصيدة كلاً متكاملاً؛ ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها؛ نسجاً وفصاحة، وحسن ديباجة، وجزالة ألفاظ.

### نتائج البحث:

ومن النتائج، التي خلصنا إليها في هذا البحث أن:

- ابن الأبار انتهج في مقدماته منهجين : منهج القدامى ؛ كما رسمه ابن قتيبة للشعراء ، مع التخفيف في تناول بعض أقسام هذه القصيدة ، ومنهج تملّص فيه من بعض التقاليد ؛ كالتخفيف من النسيب في مواقف تستدعي ذلك؛ كالاستنفار .
- مقدماته وردت متنوعة طولا ، وقصراً ، والطويلة أغلب .
- المقدمات الغزلية كانت أكثر وأوفر ، استهل فيها . غالباً . قصائد المدح ، إلا أن هذه المقدمات الغزلية ، كثيرا ما كانت ممزوجة بأدوات الحرب .
- من مذاهب الشاعر الفنية الثورة على المقدمة الطللية .
- عدد أبيات مقدمات الشاعر ، قد تراوحت بين ثمانية أبيات واثنين وأربعين بيتا موزعة على أغراض ؛ أهمها : المدح ، الاستعطاف ، الاستنفار ، الوصف والثناء .
- تناول الشاعر لمقدمات قصائده كان بالترتيب : المقدمة الغزلية، تليها مقدمة الشكوى من الزمان والأيام ، فالمقدمة الطللية، فالبحرية ، ثم الخمرية ، وأخيرا الحماسية .

## الإحالات والهوامش :

1. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص303 .
2. ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، قدّم له: حسن تميم، وراجعته وأعدّ فهرسه: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم بيروت، لبنان، ط1986، 2، ص31 32 .
3. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص31 . 32 .
4. ينظر: عدنان محمد غزال، ابن الأبار البننسي . حياته وأدبه . جامعة دمشق، سوريا، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، 1997 . 1998، ص463 .
5. ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر ود.م.ج الجزائر، ط2 1956، ق 107، ص233 .
6. ابن الأبار، ق 203، ص429 .
7. أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، دار الوفاء لندنيا للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2003 ص 134 .
8. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، طبع مكتبة الخانجي بمصر، ط2، 1960، 4/24.
9. ينظر: عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر، الجاهلي، دار المعارف بمصر، د.ط، 1970، من ص 71 إلى ص 107.
10. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 31 . 32.
11. ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الجزء الأول، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، المكتبة العصرية صيدا . بيروت . ط1، 2001، 231/1.
12. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 305.
13. ابن الأثير، أبو الفتح، ضياء الدين نصر الله بم محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الباب الحلبي القاهرة . د.ط، 1939، 96/3 . 97.
14. المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت دط، 1983، ص 302 .
15. أبو نواس، ديوان أبي نواس، حَقَّقَه وشرحه وفهرسه : سليم خليل قهوجي دار الجيل، بيروت، دط، 2003، ص 267 .
16. أبو نواس، ديوان أبي نواس، ص 790 .
17. الفُدْمُ : الأحق، العي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم . وقُرئت اللفظة بالقاف أي : (القدم) .
18. براونة، فالتر، (Walter Braouna) الوجودية في الجاهلية (مقال)، مجلة المعرفة السورية السنة الثانية العدد الرابع حزيران، 1963، ص156، 161 .
- نقلا عن: عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص217.
19. الربيعي، ابن سلامة، تطور البناء الفني في القصيدة العربية، دارالهدى عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2006، ص14.
20. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، تقديم: حسن تميم مراجعة وإعداد: عبد المنعم العريان، ط3، 1986، ص 31 .
21. ابن الأبار، الديوان، ق 201، ص 417 .

22. نفسه ، ق 201 ، ص 418 .
23. حُزوى : موضع في ديار بني تميم .
24. الخُلصاء : موضع بالدهناء. \* قواء : فقراء .
25. دَهْدَةٌ : دَحْرَجَ . \* المروا : حجارة بيض بَرَاقة.
26. شكوا : ما يُشْتَكى منه . \* أخوى : جاع .
27. ابن الأبار ، الديوان ، ق 201 ، ص 419 .
28. ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 97 ، ص 218 .
29. نفسه ، ق 67 ، ص 215 . \* هذه القصيدة مبتورة ، غير كاملة . فبقية الصفحة والصفحة التي تليها بياضٌ . ( ينظر : الديوان ، الحاشية 24 ، ص 218 ) .
30. الدعس : الطعن بالرمح . \* الهبير : الضرب القاطع .
31. سُحْمٌ : سوداء .
32. ابن الأبار ، الديوان ، ق 20 ، ص 67 .
33. نفسه ، ق 159 ، ص 329 .
34. القَصّ : الصدر .
35. المحص : الخالص من العيب .
36. الوخذ : نوع من السير . \* النصّ : أن تستخرج أقصى السير من الناقة .
37. النعامى : ريح الجنوب أو بينه وبين الصبا .
38. حِسْمَى : أرض بالبادية، أو قبيلة جذام
39. يفصي : ينقطع .
40. ابن الأبار ، الديوان ، ق 63 ، ص 143 .
41. ينظر : محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص 237 .
42. ابن الأبار ، الديوان ، ق 67 ، ص 159 .
43. سدكت : لُزمت .
44. الثمدا : الماء القليل ، لا مادّ له .
45. هناك قصيدة أخرى ، فيها حديث عن الأطلال في مقدمة غزلية . ( ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 93 ، ص 205 ) .
46. ابن الأبار ، الديوان ، ق 111 ، ص 243 .
47. طَلَّتْ نجيعي : أهدرت دمي .
48. ابن الأبار ، الديوان ، ق 203 ، ص 429 .
49. ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 93 ، ص 205 .
50. ينظر : هدى شوت بهنام ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي ، دراسة موضوعية فنية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، ط 1 . 2000 . ص 119 ، وما بعدها .
51. ينظر : حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، دار الجيل ، بيروت ، دط ، 1981 ، ص 39 ، 42 .

52. ابن الأبار ، الديوان ، ق 85 ، ص 185 .  
 53. نفسه ، ق 85 ، ص 186 .  
 54. نفسه، ق 85، ص 185 .  
 55 . ينظر: ابن الأبار ، الديوان ، ق 85، ص 185 . 186 .  
 56 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 23، ص 73 .  
 57 . الضرب : العسل الأبيض الغليظ .  
 58. ينظر: ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3 ، 2002 ، ص 126.

### دَعِ الْأَجْمَالَ مُرْتَجِلَةً تَخْبُ بِرَكْبِهَا عَجَلَةً [مجزوء الوافر]

- 59 . أبو نواس، ديوان أبي نواس، حققه وشرحه وفهرسه : سليم خليل قهوجي ، دار الجيل ، بيروت ، دط 2003 ، ص 267 .  
 كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها وبين باكِ على نُوى ومُنْتَضِدٍ [البسيط]  
 دَعِ ذَا وَعْدَمَتِكَ وَاشْرَيْهَا مُعْتَقَةً صَفْرَاءَ تَغْرَقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ  
 60 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 37 .  
 61. نفسه، ق 107 ، ص 233 .  
 62. نفسه ، ق 185 ، ص 399 .  
 63. ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 31 .  
 64 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 170 ، ص 364 .  
 65. نفسه ، ق 171 ، ص 365 .  
 66. نفسه ، ق 158 ، ص 327 .  
 67. ابن رشيق ، العمدة ، 230/1 .  
 68. ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 229/1 .  
 69 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 70 ، ص 168 .  
 70 . ينظر: ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد، عيار الشعر تحقيق: عبد... لبنان ، ط3 ، 2002 ، ص 126 .  
 دَعِ الْأَجْمَالَ مُرْتَجِلَةً تَخْبُ بِرَكْبِهَا عَجَلَةً [مجزوء الوافر].